تقدمة:

فمع رياح العولمة الغربية، وموجات التحديث التي اشتملت على إعادة قراءة النص الديني بما يسمى بـ **الفيلوجيا** [(١)]، دعوة واحدة من الدول الغربية لجعلها -أي النصوص الدينية- نصوصًا توافق معطيات عصر الحداثة وما بعده عارية عن مضامينها وروح الشرائع التي جاءت بها، فبعد أن امتدت أيادي المستشرقين إلى الإنجيل والتوراة، نقدًا وتحليلًا، طالت أيديهم الآثمة كتاب الله عز وجل العزيز، ظنًا منهم أن القرآن بمنزلة الكتابين المحرفين، لما اشتملا على تناقض وتضاد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- عن فرية أن القرآن بمنزلة التوراة والإنجيل:

(والوجه الثاني: أن قياسهم كتبهم على القرآن وأنه كما لا تسمع دعوى التبديل فيه، فكذلك في كتبهم - قياس باطل في معناه ولفظه. أما معناه: فكل ما أجمع المسلمون عليه من دينهم إجماعا ظاهرا معروفا عندهم فهو منقول عن الرسول نقلا متواترا، بل معلوما بالاضطرار من دينه، فإن الصلوات الخمس، والزكاة، وصيام شهر رمضان، وحج البيت العتيق، ووجوب العدل والصدق، وتحريم الشرك والفواحش والظلم، بل وتحريم الخمر والميسر والربا، وغير ذلك منقول عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ... وأيضا فالمسلمون يحفظون القرآن في صدورهم حفظا يستغنون به عن المصاحف كما ثبت في الصحيح الذي رواه مسلم عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: **إن ربي قال لي إني منزل عليك كتابا لا يغسله الماء تقرأه نائما ويقظانا**)[(٢)] .

وحينما عرض المستشرقون القرآن على عقولهم، فمنهم من هدى الله ومنهم من أضله على علم منه بأن هذا القرآن معجز ببيانه وإخباره بخبر من سبق، وخبر من لم يوجد من الخليقة على الأرض، فجحد وكفر وادعى أنه من عند محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا المبحث، عزمت على عرض نموذجٍ من شبه أهل الاستشراق الطاعنة في حجية الوحي وإلهية مصدرية القرآن الحكيم، مع إبطالها، مستعينًا بكتب بعض المعاصرين من الأعلام المهتمين بالرد على هذه الادعاءات تبيينًا وتفصيلا، وإظهارا لواقع القرآن في الساحة الفكرية الإسلامية المعاصرة، والله الهادي والموفق إلى سواء السبيل.

---

(١) الفيلوجيا: علم التحليل الثقافي للنصوص اللغوية المبكرة. انظر: التأويل الحداثي للتراث (ص: ١٩)

(٢)الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٣/ ٩)، الحديث جزء من حديث طويل رواه مسلم في صحيحه (٢٨٦٥).

المستشرق الألماني نودلكه (نموذجًا):

نودلكه، مستشرق ألماني، يعد عراب الاستشراق، فقد كان لأطروحاته ونتاجه أثر واضح في مسار الاستشراق الألماني وتوجيهه نحو تصوراته وأفكاره. نال نولدكه درجة الدكتوراة في رسالة عنوانها (تاريخ القرآن) عام ١٨٦٥م، عارضًا فيها أطروحاته التي تكذب ثبوت سماوية القرآن، إدعاء منه أن الآيات ما كانت تعدوا خيالات وانفعالات طاغية كانت تسيطر على محمد صلى الله عليه وسلم، وحاشاه [١].

يقول: (وأخيرًا، مما يزيد الإيمان بهذا الرأي: القول بأن محمدًا كان قد تلقى كل آيات القرآن أثناء الحالات الصرعية).

توهم ذلك من حديث (أحياناً يأتيني مثلُ صلصلة الجرس -وفي رواية: مثلَ صلصلة الجرس- وهو أشده عليَّ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي عنه ما يقول)[٢]. وهذا التوهم هو كان مجرد إيراد أورده الإمام ابن حجر في الفتح دون أن ينقل الجواب، كعادة المستشرقين الذين لا يبغون الحق ولا الاهتداء إليه [٣].

فقدم نودلكه نفسه كباحث في التراث الإسلامي، ولم يكن يعمد إلى الطريقة الاستشراقية الأولى في التعامل مع النصوص، التي تعتمد على التكذيب المباشر والافتراء، مع الاعتماد على الروايات المكذوبة، بل كان في أول أطروحاته يتجه إلى الروايات الصحيحة الثابتة التي لا تؤيد تفسيراته، فيحاول الطعن في الدلالات والالتفاف على النص حتى يجد مخرجًا يستقيم به كلامه [٤].

شبهات نودلكه عرض ومناقشة:

أما عن شبهة المستشرق نودلكه عن أن المسلمين لا يسمعون الآيات إلا في حالات أشبه بالصرع للنبي صلى الله عليه وسلم، فهذا قول لا يستقيم لأمور:

---

(١) آثار الاستشراق الألماني ص:٢٢٥-٢٢٩

(٢)صحيح البخاري (١/ ٦)

(٣)انظر: رضا الدقيقي، الوحي إلى محمد صلى الله عليه وسلم (ص: ١٠٢) بتصرف.

(٤)انظر: رضا الدقيقي، الوحي إلى محمد صلى الله عليه وسلم (ص: ١٠٧) بتصرف.

أن الأعراض كانت تصاحب النبي صلى الله عليه وسلم حال تنزل الوحي عليه فقط، فكانت أعراضًا مؤقتة لا تتعدى إلى حالات النبي صلى الله عليه وسلم الأخرى، ولا علاقة لها بمرض عضوي أو نفسي. ولا قدرة للنبي صلى الله عليه وسلم فيها، لا يجلبها ولا يصرفها (١).

وأما عن قوله أن القرآن من عند النبي صلى الله عليه وسلم، فالرد على ذلك من عدة أوجه، أبرزها:

فلأنه لا يسلم لنا بالآيات التي أخبر الله بها عن أن القرآن كلامه سبحانه، ولكنه يسلم بروايات السيرة النبوية، وفيها الكفاية في إبطال قوله وإحقاق الحق، فنقول:

أولًا: أن هناك حوادث زلزل فيها المسلمون زلزالا شديدًا، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وفوق ذلك انقطاع الوحي لفترة كان المسلمون ينتظرون فيها وحيًا يقطع به دابر الكافرين نصرة لدين الله ورسوله، ومن أشهرها حادثة الإفك، فقد انقطع الوحي عن النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من شهر، وسرى بين الناس حديث يؤذي رسول الله، حتى أنه صلى الله عليه وسلم بطبيعته البشرية، حمل في نفسه على زوجته عائشة (٢) الطاهرة رضي الله عنها من شدة لغط الناس ووقوعهم في عرضه. (٣)

فنقول: لو كان القرآن من عند النبي صلى الله عليه وسلم، ففيما تأخر الوحي إذًا؟ يقول الشيخ محمد عبد الله دراز –رحمه الله– في كتابه النبأ العظيم: (فماذا كان يمنعه –لو أن أمر القرآن إليه– أن يتقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحمي بها عرضه ويذب بها عن عرينه وينسبها إلى الوحي السماوي لتنقطع ألسنة المتخرصين؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ، فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ))(٤).

ثانيا: جاء الوحي معاتبًا النبي صلى الله عليه وسلم في أكثر من موضع، فكان يأتيه على غير ما يحبه ويهواه، فيخطئه الرأي ويصوبه، ويأمره بأمر لا تميل إليه نفسه، فإذا تلبث فيه يسيرًا، تلقاه القرآن بتعنيف شديد اللهجة، بعبارات العتاب القاسي والنقد المر، وحتى في أقل الأشياء، ومن ذلك: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ)، (وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ)، (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ

---

(١)انظر: رضا الدقيقي، الوحي إلى محمد صلى الله عليه وسلم (ص: ٢١٦) بتصرف.

(٢)(يا عائشة، أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله) صحيح البخاري (٣/ ١٧٥).

(٣) انظر: النبأ العظيم (ص: ٥٣) بتصرف.

(٤)النبأ العظيم (ص: ٥٣).

أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ)[١]. فلو كان القرآن مفترى من النبي صلى الله عليه وسلم، فكيف يكون في ما أتى به عتاب له ؟!

وللشيخ مناع القطان ملمح ذكي، وفيه رد منطقي على أولئك الذين يزعمون أن القرآن من عند النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول: (وهذا زعم باطل، فإنه عليه الصلاة والسلام إذا كان يدَّعي لنفسه الزعامة ويتحدى الناس بالمعجزات لتأييد زعامته فلا مصلحة له في أن ينسب ما يتحدى به الناس إلى غيره، وكان في استطاعته أن ينسب القرآن لنفسه، ويكون ذلك كافيًا لرفعة شأنه، والتسليم بزعامته، ما دام العرب جميعًا على فصاحتهم قد عجزوا عن معارضته، بل ربما كان هذا أدعى للتسليم المطلق بزعامته لأنه واحد منهم أتى بما لم يستطيعوه)[٢].

الخاتمة:

يقول صاحب أضواء البيان الشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله تعالى– في قول الله عز وجل: (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ):

(ثم إنه تعالى لما صرح هنا بأن هذا القرآن ما كان أن يفترى على الله، أقام البرهان القاطع على أنه من الله، فتحدى جميع الخلق بسورة واحدة مثله، ولا شك أنه لو كان من جنس كلام الخلق لقدر الخلق على الإتيان بمثله، فلما عجزوا عن ذلك كلهم حصل اليقين والعلم الضروري أنه من الله جل وعلا، قال جل وعلا في هذه السورة –أي سورة يونس–: أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) [٣].

فهؤلاء المستشرقون الذين أنكروا حجية الوحي، إنما أنكروه على علم بقوة بلاغته وحسن بيانه ونظمه، ولايعدوا كفرهم كفرَ صناديد قريش الذين أعجزهم القرآن فكذبوا به و جحدوا، و الشبهة التي روج لها نودلكه، هي غيض من فيض، وجزء من الشبهات التي طعنت في كتاب الله عز وجل، والناظر في شبهات المستشرقين وغيرهم ممن حذا حذوهم، يجد أنها لا تتجاوز شبهات الكفار التي أبطلها الله في كتابه، في غير موضع واحد، وتصدى لها أهل الإسلام عرضًا ونقدًا منذ عصر النبوة وإلى اليوم، (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

تم بحمد الله

---

(١)انظر: المصدر السابق (ص: ٥٤)بتصرف.

(٢)مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (ص: ٣٨)

(٣)أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢/ ١٥٦).

المراجع:

١-آثار الاستشراق الألماني في الدراسات القرآنية:

د. أمجد يونس الجنابي، مركز تفسير، الرياض، ١٤٣٦هـ.

٢-أضواء البيان:

العلامة محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ.

٣-التأويل الحداثي للتراث:

إبراهيم عمر السكران، دار الحضارة، الرياض، ١٤٣٥هِ.

٤-الجواب الصحيح لمن بدل دين المسييح:

شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، تحقيق: علي بن حسن الألمعي، عبد العزيز بن إبراهيم العسكر، حمدان بن محمد الحمدان، دار الفضيلة، الرياض، ١٤٣١هـ.

٥-صحيح البخاري:

محمدبن اسماعيل البخاري، دار طوق النجاة، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ١٤٢٢هـ.

٦-مباحث في علوم القرآن:

مناع القطان، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٣٢هـ.

٧-النبأ العظيم:

محمد عبدالله دراز، مركز إبصار، القاهرة، ١٤٣٧هـ.

٨-الوحي إلى محمد صلى الله عليه وسلم بين الإنكار والتفسير النفسي:

د.رضا محمد الدقيقي، دار النوادر -سلسلة إصدارات وزارة الأوقاف القطرية-، سوريا-لبنان-الكويت، ١٤٣٢هـ.